**الصهيونية وفلسطين: الطريق إلى النكبة الفلسطينية**

**التسمية**

اشتقت الصهيونية من كلمة كنعانية قديمة اسمها "صهيون" وهي تعني "**الجبل المشمس**" أو "الحصن"، وهذه الكلمة أطلقها الكنعانيون على الجبل الشرقي لمدينة القدس (يبوس)، التي بناها اليبوسيون واتخذوها موقعاً وحصناً لحكامهم، وكان ممن أقام فيها الشيخ سالم، الذي سميت المدينة باسمه "اورسالم"، أو "أورشالم". وعندما استولى الملك داود على يبوس كانت تعرف بأورشليم، لكن اسم صهيون ظل يستخدم كمفهوم ديني كناية عن مدينة القدس، وليس للدلالة على "الصهيونية" كمفهوم سياسي.

أما عبارة "الصهيونية" (Zionism) بالانجليزية، فلم تظهر كمصطلح سياسي إلا على يد الكاتب والصحفي اليهودي النمساوي ناثان بيرن باوم (Nathan Birnbaum 1869-1937)، الذي ابتكرها لأول مرة عام 1890م في صحيفته "التحرر الذاتي"،على نمط اللغة الألمانية (Zionismus) كبديل لجمعية "أحباء صهيون" التي تأسست في روسيا عام 1882م, لكن مصطلح الصهيونية كحركة سياسية لم ينتشر ويتبلور بمفهومه الحالي إلا مع تيودور هرتزل (Theodor Herzl 1860-1904) المؤسس الفعلي والأب الروحي للحركة الصهيونية التي تأسست رسمياً في المؤتمر الصهيوني الأول في بازل عام 1897م.

ويعتبر الصهاينة أن الصهيونية المتعارف عليها والتي دعا إليها هرتزل في مؤتمر بازل هي الوريث الشرعي لعدد من الجمعيات والنداءات الفكرية الصهيونية السابقة التي بدأت تظهر إلى حيز الوجود منذ منتصف ثلاثينات القرن التاسع عشر، والتي لم تكن تجد الحد الأدنى من التجاوب بين اليهود أنفسهم، إلا مع بداية الستينات من القرن التاسع عشر، ونتيجة لعدة عوامل مهدت الطريق لنشأة الحركة الصهيونية، التي هدفت لحل المشكلة اليهودية عن طريق ما يسمى بإعادة توطين اليهود في فلسطين، (أرض الميعاد) وإنشاء الدولة اليهودية فيها. وحسب المفهوم الصهيوني تعتبر الصهيونية حركة قومية لإعادة "الشعب اليهودي" إلى وطنه واستئناف السيادة اليهودية على "أرض إسرائيل" ,إلا أن القراءة الدقيقة للمنطلقات النظرية للصهيونية ولممارساتها العملية على أرض الواقع تؤكد أنها حركة سياسية علمانية استعمارية استيطانية تقوم على النزعة العنصرية وعلى العدوان والتوسع والتحالف مع الامبريالية من أجل تحقيق أهدافها القومية، وتستغل الدين اليهودي واللاسامية وتوظفهما لتحقيق غاياتها وأهدافها القومية والسياسية.

**أسباب نشأة الحركة الصهيونية**

في الثابت علمياً أن الحركة الصهيونية لم تنشأ في فلسطين أو في أي بلد عربي، وإنما نشأت ونمت في أوروبا وانطلقت منها، والسبب يعود في أن أوروبا كانت تشكل البيئة الخصبة والحاضنة الطبيعية لعدة عوامل تضافرت مجتمعة مع بعضها البعض أدت إلى ظهور الصهيونية منها:

**1. حركة الاستعمار العالمي**

يعتبر الاستعمار الغربي من العوامل الأساسية التي ساهمت في نشأة الحركة الصهيونية وفي تطورها، ونجاحاتها. لقد شهد القرنان الثامن عشر والتاسع عشر ازدياد وتيرة الحركة الاستعمارية العالمية، التي أشعلت تنافساً محموماً للاستيلاء على شعوب وقارات العالم الثالث وتوطين البيض الغرباء فيها.

ولم يكن من قبيل المصادفة أن تأتي نشأة الحركة الصهيونية متزامنة مع صعود حركة الاستعمار العالمي وأن تتأثر بأهدافه وأساليبه ونماذجه الاستيطانية في اغتصاب فلسطين وتوطين المستعمرين اليهود الغرباء فيها أسوة بما فعلته القوى الاستعمارية الغربية في أفريقيا واستراليا وأمريكا اللاتينية وغيرها من قارات العالم التي قامت في سياساتها على التوسع والعدوان واغتصاب الأراضي واستغلال ثرواتها وإزالة هوية أبنائها ومعارضة الاتجاهات الاستقلالية التحررية لديهم.

لقد ترافق هذا التنافس الاستعماري الحثيث في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، على إيجاد حليف قوي يتم استخدامه لتحقيق أغراض الدول الاستعمارية في المنطقة وضد بعضها

البعض. لقد وجدت القوة الاستعمارية البريطانية- بعد أن أخفقت قبلها القوة الاستعمارية الفرنسية- في اليهود والصهيونية العالمية أداة نموذجية لتحقيق أهدافها ومخططاتها الإستراتيجية في المشرق العربي. من جانبها وجدت الصهيونية في الاستعمار الغربي السند والقوة المادية الفعلية لاستيطان فلسطين واغتصابها من سكانها الأصليين، ولهذا ربطت الصهيونية العالمية أهدافها وأساليبها عضوياً مع الامبريالية والاستعمار الغربي، وما زالت هذه العلاقة العضوية قائمة حتى يومنا هذا. مؤسس الحركة الصهيونية تيودور هرتزل يعبر عن هذه العلاقة العضوية في كتابه "دولة اليهود"( Der Judenstaat)حيث يقول: "سنشكل هناك [في فلسطين] بالنسبة إلى أوروبا حاجزاً ضد أسيا، وسنكون الحامي المتقدم للمدنية ضد البربرية. سنبقى كدولة محايدة [؟!] على علاقة مع جميع أوروبا التي يجب عليها ضمان وجودنا".

ومن الأدلة الدامغة على تبني الصهيونية للنموذج الاستعماري الغربي في حل المسألة اليهودية على حساب الشعب العربي الفلسطيني ما كتبه تيودور هرتزل في 11 /1/ 1902 إلى سيزل رودس (1853-1902 Cecil Rhodes) أحد رواد الاستعمار الاستيطاني الإنجليزي آنذاك والذي أعطى اسمه لدولة روديسيا( موزمبيق حاليا): "أرجو أن ترسل لي كتاباً تقول فيه بأنكم درستم برنامجي وأنكم توافقون عليه، وإذا سألت لماذا أتوجه إليك يا سيد رودس، فلأن برنامجي هو برنامج استعماري".

**2. اللاسامية (العداء لليهود)**

إن ظاهرة "معاداة اليهودية" ظاهرة قديمة بدأت منذ بداية القرن الرابع عشر في أوروبا، أما ظاهرة معاداة السامية (معاداة اليهود) فهي ظاهرة حديثة نسبياً مقارنة مع معاداة اليهودية، فهي لم تظهر إلا لأول مرة في كتاب الصحفي الألماني "فيلهلم مار" Wilhelm Marr 1819-1904) ) الذي أصدره بعنوان **"انتصار اليهودية على الجرمانية"**عام 1879م.

لم تولد الحركة الصهيونية من رحم الديانة اليهودية، ولم تأت نتيجة دوافع ذاتية خاصة باليهود وتاريخهم في فلسطين ولم تكن مرتبطة بمقولة "حنينهم الدائم إلى صهيون" أو بما يسمى "الوعد إلالهي"،وإنما نشأت الحركة الصهيونية في أوروبا تحديداً في القرن التاسع عشر بالذات، بسبب انتشار عدة ظواهر ونظريات ونزعات قومية وعنصرية استغلها الصهاينة ووظفوها خدمة لمصالحهم القومية وأهدافهم السياسية، ولعل من أهم هذه الظواهر إضافة الى الاستعمار، كانت ظاهرة اللاسامية التي انطلقت من شرق أوروبا إلى غربها، فالأوضاع السياسية الصعبة التي عاشها اليهود وموجة الاضطهاد الروسي منذ أوائل ثمانيات القرن التاسع عشر كانت وراء نشأة وتطور الأفكار الصهيونية.

وتعود أسباب معاداة السامية إلى عدة عوامل عميقة وقديمة ومتداخلة مع بعضها البعض ومتنوعة، اقتصادياً وسياسياً وقومياً ودينياً، ولا تتعلق باليهود فقط، وإنما أيضاً بمن يحيط بهم وبالظواهر الاجتماعية والسياسية التي كانت منتشرة في القارة الأوروبية.

دينياً اعتبر اليهود مسئولون عن صلب السيد المسيح عليه السلام، وعرقياً تعتبر النظرة اليهودية إلى الذات أن يهود العالم "شعب الله المختار" والأرقى من جميع الشعوب الأخرى".لقد غذت هذه النظريات والأفكار روح التعصب والانعزال عند اليهود.

ومن الطبيعي أن تصطدم وأن لا تتعايش هذه الأفكار العنصرية والقومية والشوفينية الاستعلائية المتعصبة مع مثيلاتها التي سادت في ألمانيا وايطاليا وفرنسا وانجلترا، والتي كانت تؤمن بنظريات "التفوق العرقي" ورسالة الرجل الأبيض، التي مثلها الاستعمار وجسدتها لاحقاً النازية في ألمانيا والفاشية في ايطاليا.أما الأوضاع الاقتصادية الجيدة التي تمتع بها اليهود بشكل عام بسبب تعاملهم بالربا والتجارة فكانت عاملا إضافياً لإثارة الحسد والحقد والكره ضدهم.

**رواد الحركة الصهيونية الأوائل**

لقد عارض رواد الحركة الصهيونية الأوائل مبدأ المساواة وسياسة الاندماج في المجتمعات الأصلية كحل للمسألة اليهودية، واعتقدوا بدلاً من ذلك أن حل المسألة اليهودية ومستقبل اليهود مشروط بخروجهم من أوروبا وبتحويل اليهود إلى أمة مستقلة، وبعودتهم إلى "وطنهم التاريخي" وإقامة دولة لهم فيها على النمط الاستعماري الغربي، ومن أمثلة هؤلاء الذين ساهموا في نشأة الصهيونية واعتبروا من روادها الأوائل هم:

**موزس هس (Moses Hess 1875-1812)**

ولد موزس هس في بون في ألمانيا عام 1812، ويعتبر من المفكرين اليهود الذين تركوا انطباعاً عميقاً في الفكر الصهيوني لدرجة أن البعض اعتبره ليس مبشراً بالحركة الصهيونية فقط، بل ومؤسسها أيضاً. ففي كتابه الذين أصدره عام 1862 تحت عنوان **"روما والقدس"** (Rome and Jerusalem) أودع فيه معظم أفكاره وآرائه الصهيونية التي انطلقت من فكرة وجود "قومية يهودية" ترتكز على العرق والدين، وبالتالي فإن حل المسألة اليهودية لا يتم من خلال الاندماج، وإنما بتهجير اليهود صوب فلسطين، وإقامة مستعمرات في فلسطين "تمتد من السويس إلى القدس ومن ضفاف الأردن إلى شاطئ البحر المتوسط"، تمهيداً لإقامة الدولة اليهودية.

والمتأمل في أفكار هس ودفاعه عن إيجاد "قومية يهودية" ومستعمرات يهودية في فلسطين، لا يحتاج إلى جهد جهيد حتى يدرك الرسالة التي يود هس إيصالها، وهي أنها تخدم عدة جهات في آن واحد، وهي فرنسا والدول الغربية، وأثرياء وفقراء اليهود على حد سواء. ومن أجل تحقيق ذلك طالب هس بتحالف يهودي فرنسي، معتقداً أن فرنسا بعد حصولها على امتياز شق قناة السويس تعتبر من أكثر الدول المؤهلة والمستفيدة تجارياً من قيام هذه المستوطنات اليهودية وأن البلدان المسيحية الأخرى لن تعارضها لأسباب لها علاقة بمصالحها الداخلية، ففي هذا الصدد قال هس: "... بعد أن ينتهي العمل في شق قناة السويس فإن مقتضيات التجارة العالمية تتطلب إقامة المستودعات والمستوطنات على الطريق التجاري الممتد عبر المشرق العربي شرقاً باتجاه الهند والصين، بحيث تتمكن هذه المستوطنات من القضاء على حالة الفوضى وعدم الاستقرار في البلاد الواقعة على هذا الطريق... ولن يتم ذلك إلا في ظل حماية عسكرية من جانب الدول الأوروبية وبالذات فرنسا التي كانت دبلوماسيتها الحكيمة تخطط على الدوام لضم الشرق إلى الأقاليم الحضارية".

وعن الفائدة التي ستجنيها فرنسا أردف هس قائلاً: "... من مصلحة فرنسا أن يستوطن الطريق التجاري المؤدي إلى الهند والصين شعب موالٍ تماماً لمصالحها الاقتصادية والحضارية حتى يتسنى لها تحقق الرسالة الإنسانية التي أرست معالمها الثورة الفرنسية الكبرى"، وبخصوص مصلحة البلدان الأوروبية الأخرى قال: "إن الأمم المسيحية لن تعارض إطلاقاً إنشاء وطن لليهود في فلسطين طالما أن ذلك يضمن لها التخلص من شعب غريب شاذ يسبب لها مشاكل كثيرة".

لقد تصور هس أيضاً أن إيمان اليهود برابطة قومية مشتركة سيوفر لهم حل الاختلافات والتناقضات بين الفئات اليهودية الفقيرة والفئات الثرية، وأما الفائدة المادية التي سيجنيها اليهود، عبر هس قائلاً: "... إن تعميق مفهوم الأرض القومية المشتركة يوفر الركيزة الأساسية لإقامة علاقات أفضل وأكثر تقدمية بين الأغنياء والفقراء من اليهود"، وأن تحقيق الاستيطان اليهودي في فلسطين يتطلب "استغلال رأس المال اليهودي تحت مظلة الدولة الأوروبية والفرنسية بشكل خاص...".

**ليون بنسكر (Yehuda Leib (Leon) Pinsker 1821-1891)**

ولد بنسكر عام 1821 في بولندا (الروسية)، ودرس الحقوق والطب في جامعة موسكو، وعاد إلى أوروبا ليعمل فيها طبيباً منذ عام 1849، في بداية حياته آمن بنسكر بضرورة وحتمية اندماج اليهود في المجتمع الروسي، وحثهم على التحدث باللغة الروسية، لكن اللاسامية (وتحديداً في روسيا) وتحريض الحكومة الروسية رسمياً على معاداة اليهود أفشلت أهداف حركة الهسكلاة بين اليهود، وجعلت مساعي اندماج اليهود في المجتمع الروسي غير ممكنة، وتحت تأثير اللاسامية الصاعدة وخاصة بعد مجازر (Pogrom) في سنة 1881 أثر اغتيال القيصر الروسي الكسندر الثاني اضطر بنسكر كردة فعل على هذه المجازر إلى تغيير أفكاره وقناعاته، التي نشرها بشكل واضح في كتابه **"التحرر الذاتي**" (Selbstemanzipation) الذي أصدره باللغة الألمانية. لقد دعا بنسكر في كتابه اليهود إلى خلق قومية يهودية تتيح لهم العيش على أرض محددة خاصة بهم دون أن يركز على فلسطين، حيث قال في هذا السياق "إن هدف جهودنا الحالية يجب ألا يكون "الأرض المقدسة" بل أرضاً تخصنا وحدنا، فنحن لسنا بحاجة إلا إلى قطعة كبيرة من الأرض لأبناء قومنا... ربما تصبح الأرض المقدسة في وقت لاحق لنا"، واقترح بنسكر منطقة في شمال أمريكا، أو ولاية مستقلة في آسيا، أما نظريته السياسية فيلخصها بنسكر بالآتي:

\* أن اليهود ليسوا أمه حية، إنهم غرباء في كل مكان، ولذلك فهم محتقرون.

\* إن التحرر السياسي والمدني لليهود لم يكن كافيا ليرفعهم في تقدير الشعوب.

\* الخلاص الوحيد هو بخلق القومية اليهودية؛ فالتحرر الذاتي لليهود كشعب،لا يتم إلا بحصولهم على وطن لهم وحدهم.

\* إن الوقت الملائم للتحرر قد جاء وعلى الرغم من كون المسألة اليهودية مسألة عالمية، فإن حلها يجب أن يكون حلاً قومياً (يهودياً) وعلى اليهود اتخاذ الخطوة الأولى بعقد مؤتمر يهودي عالمي.

لقد رفضت الأغلبية الساحقة من يهود ألمانيا أفكار بنسكر، وعلى النقيض من ذلك التزموا بالكفاح من أجل الاعتراف بهم ومن أجل اندماجهم في المجتمع الألماني.

**الحاخام يهودا الكلعي (Yehuda Alkalai 1798-1878)**

ولد يهود الكلعي في سراييفو في البوسنة عام 1798 وفي عام 1825 تم اختياره حاخاما للطائفة اليهودية في صربيا، وفي عام 1839 ألف الكلعي كتاباً حول **"قواعد اللغة العبرية**"، ودعا فيه اليهود إلى الاستغراق في الصلاة تحقيقاً للنبوئه المسيائية، لأنه قال أنه توصل استناداً إلى حسابات أجراها بموجب علم "الكابلاة"(Cabala) إلى نتيجة مفادها أن عام 1840 سيكون عام "الخلاص اليهودي" والعودة إلى "أرض الميعاد"، ولذا فقد حث اليهود وخاصة الفقراء منهم في أوروبا الشرقية إلى الهجرة إلى فلسطين تحت شعار "المسيح الإنسان" استعداداً لمجيء المسيح المنتظر، وفي عام 1840 ألف كتاباً اسماه "**سلام يا قدس" (شلوم يروشالايم)،** حث فيه اليهود على دفع عشر مدخولهم من أجل العودة ومساعدة يهود القدس، ولما فشلت نبوءته بعدم ظهور المسيح المخلص، ووقعت حادثة دمشق الشهيرة عام 1840، التي اتهم فيها اليهود بقتل المسيحيين، مما قاد إلى إجراء محاكمات لعدد من اليهود المتهمين، تخلى عن أطروحاته السابقة، ولجأ إلى تبني فكر جديد اسماه "الخلاص الذاتي التدريجي"، أي أنه يجب العمل على إنشاء كيان يهودي في فلسطيني بشكل منظم وتدريجي، وليس بشكل عفوي ومفاجئ، وأن اليهود الأغنياء يجب أن يتحملوا مسؤولية إنشاء وتمويل المستوطنات اليهودية.

إضافة إلى هؤلاء الرواد الصهاينة هناك أيضا العديد من المفكرين اليهود الذين تركت أفكارهم أثاراً عميقة وواضحة في الفكر الصهيوني القائم على تهجير اليهود إلى فلسطين واستعمارها, وعلى تحويل اليهود إلى أمة مستقلة تمهيداً لإقامة الدولة اليهودية، وكان من بين هؤلاء الحاخام البولندي زفي هيرش كاليشر (Zvi H. Kalischer, 1795-1874) الذي ألف كتاباً أسماه **"البحث عن صهيون**"، 1861 (Drishot Tziyon)، وكان أول كتاب يظهر في شرق أوروبا يتحدث فيه عن الاستيطان الزراعي اليهودي في فلسطين. وكذلك دعا اليهودي الروسي آشر غيسنبرغ (Asher Ginsberg 1856-1927) الذي عبر عن آرائه في مقال نشره عام 1889 بعنوان **"ليس هذا هو الطريق"** وتحت اسم مستعار وهو آحاد هاعام (Ahad Ha-Am) ومعناه "واحد من عامة الناس" انتقد فيه أسلوب برنامج "أحباء صهيون" في ولادة القومية اليهودية من جديد والداعي إلى الهجرة اليهودية واسعة النطاق إلى فلسطين، وشكك في قدرتهم في التحول إلى مزارعين حقيقيين، لقد تركزت فكرته على إقامة مركز روحي لليهودية في فلسطين، وليس لليهود، يعيد لهم وحدتهم ويقود في النتيجة إلى خلق القومية اليهودية.

**هرتزل وإنشاء المنظمة الصهيونية العالمية 1897**

ولد تيودور هرتزل في مدينة بودابست بالمجر عام 1860، وفي عام 1878 انتقل مع أسرته إلى فينا، حيث درس في جامعة فينا (1878-1884) وتخرج منها بدرجة دكتوراه في الحقوق 1884، وما لبث أن تحول من العمل في المحاماة إلى عالم الأدب والصحافة والكتابات المسرحية، وفي عام 1891 عمل مراسلاً في باريس إلى صحيفة "نوي فراي برسه" (Neue Freie Presse) أوسع الصحف النمساوية انتشاراً، وظل مراسلاً لها حتى سنة 1895، إلى أن عاد إلى فينا ليتسلم رئاسة تحرير القسم الأدبي في الصحيفة.تيودور هرتزل لم يكن يوماً متديناً ويروي في مذكراته بأنه لا يعترف بأية مرجعية دينية لسياساته وأفكاره الصهيونية فهو يقول: "إنني لا أخضع لأي وازع ديني"... فأنا غنوصي".

وفي سياق آخر قال هرتزل: "إن المسألة اليهودية لا تعني بالنسبة لي مسألة اجتماعية أو مسألة دينية... إنها مسألة قومية" . لقد اعترف هرتزل أن نقطة التحول من الاندماج إلى الصهيونية بدأت عنده بعد قراءته لكتاب الفيلسوف الألماني المعادي للسامية كارل اويغن ديورنغ (Karl Eugen Duehring 1833-1921 )حول المسألة اليهودية والذي اعتبر اليهود عنصر هدام للحضارة( ، وأن فضيحة الضابط اليهودي الفرنسي الفرد درايفوس \*(Alfred Dreyfus 1859-1935) الشهيرة في فرنسا واتهامه بالجاسوسية لألمانيا، هي التي أيقظت في هرتزل الاهتمام بحماية اليهود من الاضطهاد، وبضرورة تشكيل الحركة الصهيونية، ومن أن أفضل حل في نظره يكمن في إيجاد قطعة أرض يمكن أن تقام عليها دولة يهودية ذات سيادة، ولم يكن محور اهتمام هرتزل في البداية الأرض المقدسة، بل كان مستعداً أن يقبل بأي قطعة أرض تعرض عليه من اجل تحقيق أهدافه مثل أوغندا وطرابلس وقبرص والأرجنتين.

وبعد قضية الضابط درايفوس أصبح هرتزل معنيا في عدم وأد اللاسامية، وإنما في إثارتها حيث شبهها ببخار الماء الذي يغلي في وعاء على النار، فالبخار هو الذي يدفع الغطاء بقوته، وقال أيضاً إن "معاداة السامية قد كبرت وما زالت تكبر، وكذلك أنا".

هرتزل ورفاقه الصهاينة لم يكونوا معنيين برفع الظلم والبؤس والعذاب عن اليهود، ولم يهتموا بمساواتهم القانونية ومنحهم حقوق المواطن كباقي السكان الذين يقيمون معهم، على العكس تماماً كانت أفكار هرتزل الصهيونية ترتكز على تعميق نزعة العداء للسامة وعلى ضرورة انتشارها وتطويرها حتى تصبح –وهذا هو الأهم- الدافع والمحرك لنجاح الحركة الصهيونية, إذ يقول هرتزل في هذا الصدد: "نحن يجب أن نغرق أكثر، نحن يجب أن نحتقر في أرجاء الدنيا أكثر، وأن يبصق علينا وأن يستهزأ بنا وأن نضرب، وأن نسرق، وأن نذبح، قبل أن نصبح ناضجين للفكرة، [الصهيونية]".

لقد عبر هرتزل عن آرائه وأفكاره الصهيونية في كتابه الذي نشره في فبراير/نيسان 1896 باللغة الألمانية بعنوان "دولة اليهود" (Der Judenstaat). ومما قاله هرتزل في كتابه عن دور الاستعمار في إقامة دولة اليهود المطلوبة "... كانت محاولات الاستعمار الفردية محاولات مثيرة للاهتمام -بالرغم من فشلها- لما مثلته على نطاق صغير من مؤشرات عملية لفكرة تأسيس دولة اليهود، وكانت مفيدة من حيث أنها جعلتنا نستفيد من أخطائهم في تنفيذ المشاريع الضخمة". وتناول هرتزل في كتابه أيضاً ظاهرة العداء للسامية واعتبرها وسيلة مناسبة لدفع الجماهير اليهودية نحو الهجرة وإقامة "وطن قومي" لها، وأن الحركة الصهيونية "ليست بحاجة إلى بذل الكثير من الجهد من أجل دفع الجماهير اليهودية صوب الوطن المنشود فالمعادون للسامية سيتولون مهمة تقديم الجهد اللازم لذلك".

أثناء انعقاد المؤتمر الصهيوني الأول في مدينة بازل (Basel) في سويسرا في الفترة الواقعة بين 29-31 آب/أغسطس 1897 بحضور 204 مندوبين عن 15 بلداً (ثلثهم من روسيا) والذي دعا إليه هرتزل، أكد الأخير على هذه العلاقة بين معاداة السامية والحركة الصهيونية قائلاً: "معاداة السامية منحتنا القوة الذاتية من جديد: لقد رجعنا إلى وطننا... إلى أرض اليهود".

انتخب المؤتمر هرتزل رئيساً له، وأسس المنظمة الصهيونية العالمية (World Zionist Organization WZO) وأقر لها برنامجاً عرف بـ (برنامج بازل).

لقد حدد المؤتمر هدف الصهيونية الواجب تحقيقه على النحو التالي: "**خلق وطن قومي ]لاحظ وطن قومي وليس دولة[ للشعب اليهودي في فلسطين يضمنه القانون العام**".

أما الوسائل التي اعتمدها المؤتمر لتحقيق هذا الهدف فكانت:

1. تعزيز الاستيطان في فلسطين باليهود المزارعين والحرفيين والمهنيين وفق أسس وظروف ملائمة.
2. تنظيم اليهود كافة وتوحيدهم بواسطة إنشاء المؤسسات المحلية والعامة الملائمة، وفقاً للقوانين السارية في كل بلد.
3. تقوية الشعور اليهودي القومي والهوية القومية اليهودية.
4. اتخاذ الخطوات التمهيدية للحصول على موافقة الحكومات، حيث يكون ذلك ضرورياً لتحقيق هدف الصهيونية.

وفي داخل المؤتمر الصهيوني أقر أيضاً شكل العلم الصهيوني والنشيد "القومي" اليهودي (الأمل – هتكفاه بالعبرية)، ومنح العضوية لكل يهودي في العالم يلتزم ببرنامج بازل ويدفع "شاقل" اشتراكاً سنوياً.

وعندما عاد إلى فينا علق هرتزل على برنامج بازل في مذكراته بتاريخ 3 أيلول / سبتمبر 1897 قائلاً: "في بازل أقمت الدولة اليهودية، وإذا ما قلت اليوم هذا القول علناً فسأواجه بسخرية من العالم، ولكن ربما بعد خمس سنوات وبالتأكيد بعد خمسين سنة سيرى الدولة كل إنسان وسيعترف بها الجميع". وفي 29 تشرين ثاني/ نوفمبر 1947 قسمت الأمم المتحدة فلسطين واعترفت لليهود بدولة خاصة بهم.

ومن الجدير ملاحظته بخصوص غاية الحركة الصهيونية التي اتفق عليها في بازل أن المؤتمرين فضلوا عمداً استخدام عبارة "وطن قومي" (Heimstaette) بدلاً من دولة، حتى لا يتسبب ذلك في إثارة ردود فعل قوية ومعادية من الدولة العثمانية، علماً أن هرتزل كان على قناعة كاملة بأن العالم سوف يقرأها في كل الأحوال دولة يهودية.وبعد الانتهاء من أعمال المؤتمر توجه الصهاينة للعمل على جبهتين في آن واحد، الجبة الداخلية بهدف كسب ود اليهود وإقناعهم بمشروع الحركة الصهيونية، وعلى الجبهة الخارجية بهدف الحصول على تأييد إحدى الدول الاستعمارية الكبرى.

**أ. العمل على الجبهة اليهودية:**

لقد عقدت عشرة مؤتمرات صهيونية منذ مؤتمر بازل 1897 وحتى سنة 1913، أي سنة قبل اندلاع الحرب العالمية الأولى، تم خلال هذه الفترة تأسيس عدد من المؤسسات والهيئات المالية والتنظيمية لتنفيذ البرنامج الاستيطاني للحركة الصهيونية، وكان أهمها "صندوق الإتمان اليهودي للاستعمار"في عام 1899، والذي يهدف إلى تمويل الهجرة اليهودية إلى فلسطين، والصندوق القومي اليهودي **"كيرين كايمت** Leisrael) Keren Kayemeth) الذي أسس في بازل عام 1901 بهدف جباية الأموال لشراء الأراضي في فلسطين وسوريا. إن أهم ما نص عليه النظام الأساسي لهذا الصندوق هو اعتبار الأراضي التي يشتريها الصندوق وقفاً أبدياً على "الشعب اليهودي" لا يجوز بيعها أو التصرف بها، وضمان حصر العمل فيها على اليد العاملة اليهودية.

**ب. العمل على الجبهة الخارجية لاستعمار فلسطين:**

بعد الانتهاء من مؤتمر بازل قام أعضاء الحركة الصهيونية بشكل عام ورئيسها هرتزل بشكل خاص بإجراء اتصالات سياسية واسعة ومكثفة مع جميع القوى الاستعمارية والدول الكبرى للبحث عن قوة استعمارية كبرى تتبنى المشروع الصهيوني، وذلك تنفيذاً للنقطة الرابعة من الوسائل المعتمدة في برنامج بازل، فالقيادة الصهيونية كانت تدرك منذ البداية بأن المشروع الصهيوني سيمنى بالفشل، ولن يكتب له النجاح إن اعتمد تنفيذه فقط على الإمكانات والقدرات الذاتية للحركة الصهيونية، وما لم تتبناه دولة استعمارية كبرى ذات نفوذ، ولها مصالح مهمة في منطقة الشرق الأوسط، وفي ضوء هذا المفهوم وانطلاقاً من لغة المصالح المشتركة عرض هرتزل خدمات الحركة الصهيونية وتحالفها مع تركيا وبقية القوى الامبريالية التي خاطبها، مؤكدا لها أن المشروع الصهيوني في فلسطين سيكون ليس فقط في مصلحتها على المستوى الداخلي فحسب، وإنما أيضاً من مصلحتها الخارجية، إذ ستكون الدولة اليهودية حارساً أميناً لمصالحها الإستراتيجية في المنطقة إن تحالفت مع الحركة الصهيونية، ومن أجل تحقيق هذه الغاية اتصل هرتزل بقيصر ألمانيا وبالسلطان العثماني وبملك ايطاليا وبمسئولين ووزراء بريطانيين ونمساويين وروس وبابا الفاتيكان بيوس العاشر (Pius X) الذي رفض تأييد الخطط الصهيونية والاستيطان بفلسطين والقدس، والاعتراف باليهود كشعب، فضلاً عن هؤلاء اتصل هرتزل أيضاً بعدد كبير من الشخصيات السياسية وأصحاب البنوك والأثرياء اليهود، دون أن يحصل في حياته على وعد من أية دولة في رعاية مشروعة في فلسطين.

وبسبب العلاقة الوطيدة التي كانت تربط السلطان العثماني مع القيصر الألماني، كانت ألمانيا من أوائل الدول التي توجه إليها هرتزل طالباً مساعدتها في تنفيذ مشروعه وأن تتوسط له لدى السلطان العثماني حتى يمنحها فلسطين، وفي المقابل اقترح هرتزل على قيصر ألمانيا فيلهلم الثاني (Wilhelm II) أن تضع الحركة الصهيونية خدماتها تحت تصرف القيصر، وأن تلتزم بإقصاء "عناصر الشغب" من فقراء يهود أوروبا وتوطينهم في المحمية الألمانية في فلسطين كي يتم إبعادهم "عن الأحزاب الاشتراكية والنشاط الثوري بشكل عام" المناوئة للقيصر، وأن تقوم بنشر الثقافة والنفوذ الألمانيتين في دول المشرق، لكن قيصر ألمانيا الذي تحدث مع السلطان العثماني بهذا الخصوص، رفض ممارسة ضغوط عليه خشية على تدهور العلاقات الألمانية العثمانية القوية، مما دفع هرتزل إلى أن يطلب مقابلة السلطان العثماني عبد الحميد الثاني مباشرة، الذي سبق له وأن رفض مقابلة هرتزل أثناء زيارته الأخيرة لاسطنبول عام 1896، لكن هرتزل عرض على السلطان العثماني مقابل فلسطين "عشرين مليون ليرة لتسوية الأوضاع المالية في تركيا، منها مليونان لقاء فلسطين، وثمانية عشر مليوناً لتحرير تركيا من قبضة أوروبا"، السلطان الذي رفض مقابلة هرتزل, أرسل له رسالة شفوية عن طريق صديقه نيولنسكي (Newlinsky) في 19 حزيران/ يونيو 1896 قال فيها:

"إذا كان السيد هرتزل صديقك بقدر ما أنت صديقي، فانصح له ألا يتخذ أية خطوة في هذا الأمر. لا استطيع أن أبيع ولو قدماً واحدا من البلاد، لأنها ليست لي بل لشعبي، لقد حصل أبناء شعبي على هذه الإمبراطورية بدمائهم، وقد غذوها بدمائهم، وسنغطيها بدمائنا قبل أن نسمح لأحد باغتصابها منا. كتيبتان من سوريا وفلسطين استشهد أفرداهما الواحد تلو الآخر في بلفنه. لم يسلم منهم أحد؛ كلهم قدموا حياتهم في تلك المعركة. الإمبراطورية التركية ليست لي وإنما للشعب التركي، لا استطيع أن أعطي أحد أي جزء منها. ليوفر اليهود ملياراتهم، فإذا قسمت إمبراطوريتي، فهم قد يحصلون على فلسطين من دون مقابل، إنما لن تقسم إلا على جثثنا. أنا لن أقبل بتشريحنا ونحن أحياء".

وعلى الرغم من هذا الرد القاطع والمعارض للتخلي عن فلسطين لأسباب دينية، إلا أن هرتزل لم يكل ولم يمل,لقد واصل جهوده ومساعيه لمقابلة السلطان حتى حصل على دعوة إلى زيارة اسطنبول، لكن السلطان لم يقابله، وفاوضه عبر رجليه إبراهيم بك وعزة بك اللذين بلغا هرتزل موقف السلطان في 18 شباط/ فبراير 1902:

"إن جلالة السلطان سوف يسمح بهجرة اليهود إلى أراضيه في آسيا الصغرى وما بين النهرين، بشرط أن يحصل المهاجرون على إذن من حكوماتهم في الحصول على الجنسية العثمانية. وعلى المهاجرين أن يخضعوا للقوانين العثمانية، وأن يقوموا بالخدمة العسكرية ويجب ألا تكون الهجرة جماعية ولا الإقامة، وإنما وفقا للقرارات التي تتخذها حكومة جلالته في المناطق التي تحددها لهم".

وبالإجمال يمكن تلخيص الأساليب والطرق والإغراءات التي استخدمها هرتزل من عام 1896-1902في محاولة منه لإقناع السلطان العثماني من أن التخلي عن فلسطين لصالح الحركة الصهيونية هو من مصلحة الدولة العثمانية, في الميادين التالية:

1. مساهمة المنظمة الصهيونية بشكل فعال في سداد الديون المترتبة على الدولة العثمانية لصالح الدول الغربية.
2. أن التحالف مع المنظمة الصهيونية سوف يعزز من مكانة الدولة العثمانية في المنطقة وفي العالم من خلال استغلالها لنفوذ يهود العالم اقتصاديا وسياسياً وعلمياً.
3. تعهد المنظمة الصهيونية بالعمل على الضغط على الأرمن واستخدام كافة نفوذها وإمكاناتها لإجهاض الحركة الوطنية الأرمنية وإجبار زعمائها على الدخول من جديد في طاعة السلطان.
4. التزام المنظمة الصهيونية والمستوطنين اليهود بحماية الدولة العثمانية من خطر الحركة الوطنية العربية التي كانت تهدد بإعلان الثورة والانفصال عن السلطنة العثمانية.
5. استعداد المنظمة الصهيونية لبناء جامعة في القدس يدرس بها أساتذة يهود ويدرس فيها الطلبة الأتراك عوضا عن المعاهد الغربية التي على حد تعبير هرتزل – تغذي فيهم مبادئ الحرية والديمقراطية وتدفعهم للاشتراك في الأحزاب الثورية المناهضة لحكم السلطان.

إلا أن هرتزل رفض عرض السلطان العثماني، فاضطر منذ يوليو/ تموز 1902 إلى وقف اتصالاته بالعثمانيين والبحث عن حليف جديد بعد أن اقتنع أن حصول اليهود على فلسطين لن يتم إلا بالقضاء على السلطان عبد الحميد الثاني وتقسيم الدولة العثمانية.

وفي أعقاب هذا الفشل الذي منيَّ به في كل من ألمانيا والسلطنة العثمانية لجأ هرتزل إلى بريطانيا التي بدأ اتصالاته معها منذ انعقاد المؤتمر الصهيوني الرابع في لندن عام 1900م، حيث بدت الأمور تتضح لديه أكثر فأكثر من أن "بريطانيا العظيمة المتحررة سوف تستوعب عمق أهدافنا وتدرك بعد مطامعنا من خلال نظرتها الشمولية للعالم... وإذا ما تسنى لنا الانطلاق من انجلترا فلا شك أن مسيرة الفكرة الصهيونية ستتزايد وتتصاعد أكثر من أي وقت مضى". وكان هرتزل على قناعة بأن انجلترا ستتفهم حقيقة الفكرة الصهيونية –باعتبارها فكرة استعمارية- بمنتهى السهولة واليسر.

لذا قابل هرتزل وزير المستعمرات البريطاني جوزيف تشمبرلين في 22 تشرين الأول/ أكتوبر 1902 وتقدم له بطلباته من انجلترا وهي منح المنظمة الصهيونية امتياز توطين اليهود في العريش وشبه جزيرة سيناء وقبرص، بعد حمل سكانها الأصليين على تركها".

أيد تشمبرلين توطين اليهود في العريش وشمال سيناء، لكن رفض الحكومة المصرية آنذاك للمشروع بعد أن أثبت خبراء في مجال الري استحالة تأمين المياه المطلوبة من النيل إلى المشروع، وبعد هذا الرفض وافقت الحكومة البريطانية رسمياً عام 1903 على توطين اليهود في أوغندا، وعندما عرض مشروع أوغندا على المؤتمر الصهيوني السادس 1903 للنقاش تمت الموافقة عليه بأكثرية 295 صوتاً ومعارضة 178 صوتاً، لكن هذه الموافقة لم تستمر أكثر من سنتين، وذلك عندما أسقطت الأغلبية في المؤتمر الصهيوني السابع (1905) مشروع أوغندا في أعقاب التقرير السلبي الذي قدمته البعثة التي أوفدتها الحركة الصهيونية لدراسة جدوى الاستيطان في أوغندا.

**المقاومة الفلسطينية لأطماع الحركة الصهيونية قبل الحرب العالمية الأولى**

تعود البدايات الأولى للمقاومة الفلسطينية المسلحة ضد المشروع الصهيوني إلى عام 1886م، وذلك عندما قام الفلاحون والمزارعون المطرودون من الخضيرة وملبس (بتاح تكفا) بمهاجمة المستوطنين اليهود الذين طردوهم من قراهم المغتصبة رغماً عن إرادتهم بعد أن اشتراها هؤلاء المستوطنون من كبار الملاك، وفي أعقاب الاصطدامات بين الطرفين اضطرت الحكومة العثمانية عام 1887 إلى فرض قيود على الهجرة اليهودية، لكن الاصطدامات عادت وتكررت مرة أخرى عام 1892م.

لم يقتصر الشعور بخطر المهاجرين اليهود على الفلاحين الفلسطينيين، بل امتد إلى قطاع التجار والمهنيين الذين انتابهم القلق الشديد من النتائج الاقتصادية السلبية للهجرة اليهودية، لما انطوت عليه من خطر المنافسة. ومع تزايد الوعي بمخاطر المشروع الصهيوني على مقدرات البلاد تقدم وجهاء مدينة القدس بعريضتين للحكومة العثمانية، احتجوا في الأولى ضد رشاد باشا متصرف القدس في أيار/ مايو 1890 لمحاباته للصهاينة، أما العريضة الثانية المقدمة إلى حكومة الأستانة بتاريخ 24 حزيران/ يونيو 1891 طالبوا فيها بمنع هجرة اليهود الروس إلى فلسطين وتحريم امتلاكهم للأراضي وسيطرتهم المتدرجة على تجارة البلد.

وفي عام 1900 شهدت البلاد احتجاجات واسعة وقدمت العديد من العرائض الجماعية ضد شراء اليهود للأراضي الزراعية، وحاول الفلاحون مرات متعددة وقف صفقات البيع كما حدث في منطقة طبريا، عندما ابتاع اليهود مساحات واسعة من عائلة سرسق اللبنانية، ولما جاء الفنيون لمسح الأرض هاجمهم الفلاحون الفلسطينيون.وفي مطلع القرن العشرين نجح الفلسطينيون في منع أو إلغاء بعض الصفقات من خلال استصدار أحكام بالإلغاء من الباب العالي.

وبعد تبني الحركة الصهيونية في عام 1904 لتوجهات سياسية جديدة تمثلت في شعار "**العمل اليهودي والإنتاج اليهودي**" الذي عكس سياسة التمييز العنصري المبرمج ضد الفلسطينيين من جانب، وفي أعقاب توافد موجه الهجرة اليهودية الثانية (1905-1907) من جانب ثاني، وبعد اطلاع المثقفين الفلسطينيين على الكتابات والأهداف الصهيونية من جانب ثالث، تعاظمت المعارضة والمشاعر الفلسطينية المعادية للحركة الصهيونية.

وفي ظل تنامي هذا الخطر الصهيوني بادر الكتاب والمثقفون العرب والفلسطينيون إلى الكشف عن الأطماع الاستعمارية الصهيونية، وكان في مقدمة هؤلاء يوسف الخالدي، ورشيد رضا، ونجيب عازوري الذي تنبأ في كتابه **"يقظة الأمة العربية"** الذي أصدره من باريس وباللغة الفرنسية عام 1905 بخطر المخططات الصهيونية ليس فقط على الفلسطينيين وإنما على أماني وتطلعات الأمة العربية ككل، ففي هذا السياق قال: **"... يقظة الأمة العربية وجهد اليهود الخفي لإعادة تكوين مملكة إسرائيل القديمة على نطاق واسع ومصير هاتين الحركتين هو أن تتعاركا باستمرار حتى تنتصر إحداهما على الأخرى وبالنتيجة النهائية لهذا الصراع... يتعلق مصير العالم بأجمعه**" .

وبعد انقلاب عام 1908 ضد السلطان عبد الحميد الثاني والذي انتهى بعودة العمل بالدستور العثماني المعطل لعام 1876، انتشرت الصحافة في فلسطين وسورية ولبنان، والتي أخذت على عاتقها نشر الوعي ضد المخاطر الصهيونية النامية. وكان من أبرز هذه الصحف الفلسطينية والمناهضة للصهيونية صحيفة **"الكرمل"** الحيفاويه 1908، التي أسسها نجيب نصار الذي كان من الأوائل الذي تنبهوا عبر جريدته إلى الخطر الصهيوني، وقد صدرت في القدس عام 1908 أيضاً صحيفة **"الأصمعي"** التي أسسها عبد الله حنا العيسى، وصحيفة **"فلسطين**" عام 1911 التي أسسها عيسى العيسى.

لقد امتدت المعارضة للنشاطات الصهيونية في فلسطين إلى النواب العرب والفلسطينيين في مجلس النواب العثماني( مجلس المبعوثان)، حيث كان النائب المقدسي محمد روحي الخالدي من أبرز النواب العرب الذين نبهوا إلى مخاطر الحركة الصهيونية.

وإذا كانت مقاومة المخططات الصهيونية والتحذير من خطرها سببا ودافعا لنشأة الصحافة الفلسطينية ومحور اهتمامها ونشاطاتها، فإن هذه الأسباب نفسها كانت أيضاً وراء تأسيس جمعيات ومنتديات وأحزاب فلسطينية عديدة مثل "الحزب الوطني العثماني" 1911 الذي كان هدفه النضال ضد الصهاينة لا لكونهم يهوداً، وإنما لأنهم غرباء يحركهم مشروع استعماري.وهناك "جمعية الشبيبة النابلسية" 1914، و"جمعية شباب يافا" وغيرها من الجمعيات التي أسسها الفلسطينيون في الخارج، إلا أن جميع هذه النشاطات الشعبية والصحفية والحزبية والسياسة الفلسطينية والعربية المقاومة لمخططات وأطماع الحركة الصهيونية، إضافة إلى المعارضة العثمانية الرسمية، لم تفلح في الحد من نشاطات الحركة الصهيونية، التي تمكنت من خلال استغلالها لضعف الدولة العثمانية وتغلغل الفساد في أجهزتها من رفع عدد المستوطنين اليهود والمستوطنات اليهودية في فلسطين، إلى أن بلغ عددها حتى عام 1914 تسع وخمسين مستوطنة يقطنها حوالي 12 ألف مستوطن، أما عدد اليهود في فلسطين فقد بلغ حتى ذلك التاريخ بالإضافة إلى هذا العدد حوالي 70 ألف مستوطن، علماً أن ما بين 55 ألف و 60 ألفاً جاءوا إلى البلاد في فترة الثلاثين سنة الأخيرة التي سبقت الحرب العالمية.